

الأخلاق في القرآن فروع المسائل الأخلاقية

[23] بلا شك أن هذه الأعمال وما شابهها قد تكون من الموارد المحرمة قطعاً وفي أخرى من المكروهات، ولم يبيح الشارع المقدس أبداً أن يضع الإنسان المسلم نفسه في هذه المواضع حتى يلوّث سمعته ويسقط من أعين الناس، وكما أن سوء الظن بالناس محرم في الإسلام، فذلك توفير عوامل سوء الظن هو بدوره من المحرمات. وعليه يجب أن تكون الطرق في تهذيب الأخلاق مشروعة ومطابقة للموازين الإسلامية والعقلية، ومع وجود الطرق الشرعية لا داعي لسلك السبل غير المشروعة. والعجيب في الأمر أن المرجوم "الفيض الكاشاني" عندما ذكر تلك الأمور عقّب قائلاً: إن وضع الشراب المحلل في آنية توهم الناظر بالشرب للمحرم هو محل تأمل من الناحية الفقهية ولكن أهل الحب والهوى يمكن أن يعالجوا أنفسهم بأمر لا يفتي بها الفقيه أبداً، ويعتبرونها من طرق إصلاح القلب، فبعد ارتكابهم لتلك الذنوب "الصورية" كانوا يجبرونها بالأعمال الخيرية، وبعدها يذكر قصة سارق الحمّام(1). لو كان هذا الكلام من بعض المتصوفة لما كان محلاً للتعجب، ولكن يصدر من فقيه معتبر كالفيض الكاشاني، فهو غير متوقع منه، فالتسلط على أموال الآخرين وليس ثياب شخص آخر في الحمام هو من الذنوب القطعية، وهو ليس بالذنوب الصوري، وارتكاب الذنوب لا يناسب أهل الحب والهوى ولا يصلح القلب، علاوة على ذلك فمع وجود الطرق المشروعة فما الداعي للتوسل بتلك الطرق الملتوية؟ والأقرب للحق أن هذا العالم الكبير تأثر بكلمات الغزالي في كتابه "أحياء العلوم" فالغزالي لديه كثير من هذه الشطحات في دائرة السلوك والممارسة الصوفية، ولعل قصد المرجوم الفيض الكاشاني هو نقل الكلام عن الغزالي وليس تأييداً لمثل تلك السلوكيات. وهناك فرقة "اللامتية" (2) وهي من الفرق الصوفية المعروفة، حيث انتخبوا تلك 1. المحجة البيضاء، ج 6، ص 130. 2. اللمتية، هم طائفة من المتصوفة طهروا في القرن الثالث الهجري وما بعده في خراسان، فكانت عقيدتهم أن سوء الظن بالنفس هو من أولى الخُطى للوصول إلى حسن الظن بالله تعالى واصل المعرفة، فكانوا يخالفون الصوفية في سلوكهم، وكانوا من حيث المأكل والملبس لا يختلفون عن الناس في الظاهر وكان سعيهم هو عدم اظهار الخير وعدم اخفاء الشر، حتى لا يقعوا بالرياء وحب الجاه بعقيدتهم، فكانوا لا يتورعون عن اظهار قبائح ومعائب النفس أمام الملأ، حتى يصبحوا عرضةً للامانة من قبل الناس فيرتدعوا عن الغرور (وكانوا يفعلون الافعال التي يستنكرها كل إنسان) ومن يريد التفصيل فليراجع كتاب (جلوه حق) ص 63 و 64.